القصد السردي للقصص القرآني

من المتلقّي التاريخي إلى السامع/القارئ الحالي: كيف ولماذا؟[1]

الملخص:

يُظهر محور القصص في المتن القرآني عددا من الأحداث التي عاشها هذا الرسول أو ذاك (نوح، هود، إلخ.) مع قومه بحيث يبرز القرآن حوار كل من أولئك مع هؤلاء حول رهان العقيدة بين التوحيد والشرك. بينما تنتهي تلك القصص بتعليق قرآني حول مآل ذلك الحوار "**تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا** ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ" (الأعراف: 101)؛ "فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**" (يونس: 73)؛ "**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**" (هود: 49). ضمن هذا المسار، يتم تقييم ذلك التفاعل اللفظي بين كل رسل وقومه، ويتم توجيهه إلى متلقّي تلك الرسالة. نشير هنا إلى أن العديد من التفاسير القديمة والحديثة تراهن على المتلقّي الذي هو الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي يمكن الفهم بأن القصد القرآني من سرد قصص الرسل مع أقوامهم هو قصد تاريخي يستفيد منه الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، لتعزيز إرادته لمواجهة عقيدة قومه (قريش...) وأذاهم.

نفهم ممّا تم الإشارة إليه بخصوص محورية شخصية الرسول محمّد عليه الصلاة والسلام هو أن الالتفات نحو المتلقّي التاريخي يُغَيّب أهمية المتلقّي الحالي الذي يعيش هنا والآن سمع و/أو قراءة القصص القرآني.

بالمقابل، يسمح لنا تصوّر الباحث اللساني إميل بينفينيست Émile Benveniste حول وضعية ضمير "أنت" Tu/You (Benveniste, 1966, 1971) إلى أن هذا الضمير يحيل أساسا إلى توجيه الخطاب من المرسل إلى المتلقّي في الزمن والمكان الحاضرين أي هنا والآن Ici et maintenant/Here and now. من هذا المنطلق يمكن أن نفهم بأن القصد من سرد القرآن لقصص الرسل مع أنبيائهم لا يعود بنا إلى زمن مضى وانقضى وإنما يراهن ذلك السرد على القارئ/السامع لتلك القصص في الزمن الحاضر.

إذن ما أهمية التحوّل من التركيز على القارئ/السامع التاريخي إلى التبئير على القارئ/السامع الحالي؟ وإلى أي مدى يمكن المراهنة على مقاربة إميل بينفينيست Émile Benveniste حول ضمير الـ "أنت"

[1] عبد المجيد بن حبيب – قسم علم النفس – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

لاستوعاب قصد جديد للقصص القرآني بالنظر إلى استعمال ذلك الضمير فنستخلص ما يريده القرآن من المتلقّي أن يفهمه ويعيشه؟

كل ما ذكرناه سنسعى إلى أشكلته ومحاولة الإجابة عليه في هذه الورقة علمية حول القصد الذي يتخلل سرد القصص القرآني.

مقدمة:

يظهر من خلال جملة القصص القرآني العاكس للقول المتبادل بين الرسل، عليم السلام، وبين قوم كل واحد من هؤلاء، هو أن الرهان الأساسي الذي يدور حوله مضمون ذلك القول المتبادل هو رهان العقيدة، أي عبادة الله تعالى، بالنسبة للرسل، بمقابل عبادة الله مع آلهة آخرين أو هؤلاء فقط، بالنسبة لقوم كل من أولئك الرسل (مسلم، 2010). هذا الذي نلاحظه في السور القرآنية التي تذكر فيها تسلسلا عدد من الرسل وهم يتواصلون قولا مع أقوامهم. نحيل هنا إلى تواصل نوح مع قومه، وتواصل هود مع قومه وتواصل صالح مع قومه وهكذا، في كل من سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء وسورة العنكبوت، وهكذا.

– استذكار موضوع "الله": ما معناه وكيف ذلك؟:

نشير أولا إلى أن الذي يمكن استوعابه من التكرار الذي يرافق خطاب الرسل إلى أقوامهم فيما يتعلق بالتذكير بموضوع قرآني محوري هو المقابلة بين عبادة إله واحد وبين عبادة أكثر من إله، هو الطريقة التي من خلالها يتم للقرآن الكريم عرض ذلك التقابل المذكور. ففي العديد من الآيات القرآنية، سواء فيما يتعلق بما قاله نوح عليه السلام وهود عليه السلام وصالح عليه السلام، إلخ. هناك تعبير شكله الطلب "يا قوم اعبدوا الله". تظهر هنا صيغة "التحبيب والترقيق" (ابن عاشور، 1984: 188) في تعامل كل رسول مع قومه. ضمن نفس المسار، صيغة التحبيب والترقيق تتوازى مع تأكيد أولئك الرسل على الأهمية المحورية لعبادة الله باعتباره الإله الواحد الذي على كل قوم من أولئك الأقوام أن يعبدوه. بكلمات أخرى، الذي يمكن أن يفهم من ذلك التكرار المتمحور حول عبادة إله واحد هو "الله" هو إلحاح أولئك الرسل على عقيدة التوحيد التي على أقوامهم الاهتمام بها وعيشها. فالذي يمكن أن يفهم من ذلك التركيز على عبادة الله وحده من دون غيره من الآلهة هو أن عبادة الله هامشية في تاريخ البشرية، أي أنه لم يولى لها اهتمام على مدى قرون عديدة. من هذا المنطلق تم للقرآن الكريم عرض الرسل، عليهم السلام، من حيث أنهم يلحّون على تلك العبادة على اعتبارها غير مألوفة وغير متداولة على مدار التاريخ الإنساني. هذا الذي عبّر عنه الطهطاوي بكلمات أخرى تفيد نفس الدلالة "فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة غير الله تعالى" (الطهطاوي، 2003: 48). فالتكرار المذكور ليس من دون معنى. بل هو المعنى الذي علينا تحويله من صيغته المطوية إلى صيغته المبسوطة أو المنشورة. فتركيز القرآن الكريم على عبادة الله وحده يفهم على أنه "إجابة تجيب". بكلمات أخرى، نحن هنا أمام معنى يواجه معاني أخرى، أو أننا أمام خطاب لا يفهم إلا من حيث أنه خطاب مضاد أي أنه خطاب

يقابل خطابات أخرى (Bakhtin, 1981; 1986). فطلب عبادة الله وحده من دون غيره والإلحاح على تحويل ذلك القول من صيغته التلفظية إلى صيغته الفعلية، حيث نحيل هنا إلى الفعل الكلامي المسمى في التداوليات بـ "الأمريات" The Directives (Searle, 1985) يعكس مركز الاهتمام القرآني في صيغته الإيجابية أي "عبادة الله من دون غيره من الآلهة". هذا الذي يقابله في المتن القرآني الذي يعرض أيضا مركز الاهتمام العقدي المتمحور حول عبادة الله مع غيره من الآلهة أو عبادة هؤلاء من دون الله. هذا الذي يصبغه المتن القرآني بصبغة سلبية. بكلمات أخرى، يفهم من تكرار ملفوظ "اعبدوا الله"، أخذا بعين الاعتبار التصوّر الباختيني[2] على أن أي إجابة تجيب أو بكلمات أخرى، أي ملفوظ لديه صدى يريد ان يُسْمِع المتلقي إجابة ما تعيد النظر في إجابات هذا الأخير و/أو تدفعه للاستفهام حول معنى ما و/أو تستثير فيه ذكريات و/أو غير ذلك من الدلالات. من هذا المنظور يمكن أن نفهم "اعبدوا الله" على أن الذي يريد قوله الرسل لأقوامهم هو أن هذه العبادة هي العبادة التي عليكم تبنّيها. بالإضافة إلى ذلك يمكن أن نفهم على أن ذلك الملفوظ أي "اعبدوا الله" هو ناقل لصدى له إمكانية إسماع الملتقي معنى آخر يحيل إلى أن "يا هؤلاء" أي أقوام الرسل عليهم السلام، عليكم أن تتخلوا عن عبادتكم آلهة غير الله و/أو مع الله لأن هذا النوع من العبادة هي عبادة سلبية من الأهمية بمكان ترك تبنّيها. هذه إحدى الإجابات التي هي مطوية ويمكن أن تنشر فتفهم من منظور ما نشير إليه أخذا بعين الاعتبار فهم الملفوظ ليس فقط في ذاته وإنما من حيث أنه انعكاس لمعاني متنوّعة ومتعددة تدفع المتلقي أن يستوعب معاني أعمق حول الملفوظ الواحد من حيث أنه صدى لمقاصد متنوّعة.

موقف الصوت القرآني المتعالي من موضوع "العبادة": ما موقعه؟

نشير هنا إلى أنه من منظور قرآني فللقرآن في حد ذاته موقف من القصص الذي يعبر نسيجه نصي محيلين إلى ما جرى من تفاعل لفظي بين الرسل وأقوامهم بخصوص رهان التعبّد المتمحور حول "الله" بمقابل رهان التعبّد المتمحور حول جملة من الآلهة فعلينا أن نشير بأن الصوت القرآني المتعالي Le discours méta-coranique/The meta-Qur'anic discourse هو الآخر أيضا ناقل لقصد يفهم منه معنى و/أو معاني له/لها خصوصيته/خصوصيتها ضمن جملة النسيج النصي القرآني المحيل إلى فضاء قصص الرسل وحوارهم مع أقوامهم. ضمن هذا المسار، أول ما يلفت الانتباه بخصوص تدخل الصوت القرآني المتعالي حول مختلف مجريات الأحداث التي جرت بين الرسل، عليهم السلام، وأقوامهم هو تكرر تدخل الصوت القرآني المتعالي في آخر كل قصة قرآنية عاكسة للتفاعل اللفظي بين كل رسول، من جهة، وقومه، من جهة أخرى. حول هذه النقطة، يظهر في المتن القرآني التدخل المذكور بخصوص قصة نوح مع قومه على الشكل التالي

---

[2] أي بالرجوع إلى فيلسوف اللغة والناقد الأدبي ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (Bakhtin, 1981; 1986).

"فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ" ﴿الأعراف: 64﴾. أما بخصوص نفس مصدر التدخّل حول قصة الرسول هود مع قومه عاد فالآية تحيل إلى ما يلي "فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ" ﴿الأعراف: 72﴾. أما بخصوص نفس مصدر التدخل حول قصة الرسول صالح مع قومه ثمود "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿الأعراف: 78﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" ﴿ الأعراف: 79﴾. يظهر جليا، في كل هذه الأمثلة، على أن تدخل الصوت القرآني المتعالي هو في صالح التدخل القولي للرسول اتجاه التدخل القولي لقومه بحيث أن ذلك الصوت القرآني المتعالي يؤيّد التدخل القولي لذاك ويفنّد التدخل القولي لهؤلاء. ضمن هذا الصدد، الذي يمكن استوعابه من تدخل الصوت القرآني المتعالي هو أن هذا التدخل يحسم في مجريات الأحداث التي يعكسها أساسا التفاعل القولي بين الرسول وبين قومه. بكلمات أخرى، الذي يريد أن يقوله تدخّل الصوت القرآني المتعالي هو أن الأحداث التي يعرضها القرآن بخصوص التفاعل اللفظي بين الرسل وأقوامهم لا يمكن أن تبقى على مستوى العرض الوصفي فقط. فتدخل الصوت القرآني المتعالي يحيل إلى أن هذا النوع من التدخل يصدر تقييما بخصوص مجريات الأحداث التي تتمحور أساسا حول القول المتبادل بين كل رسول وقومه. فالآيات التي تمّ لنا عرضها تظهر بأنه هناك تقييم إيجابي لمقول قول كل رسول، كما أن نفس الصوت القرآني المتعالي يصدر تقييم سلبي لمقول قول كل قوم ردّ على مقول قول الرسول. إذن الصوت القرآني المتعالي يصدر تقييمين أخلاقيين، أحدهما مُدَعِّم للرسل، عليهم السلام، والآخر مقصي لأقوام هؤلاء. السؤال الذي يطرح هنا هو لماذا يتدخل الصوت القرآني المتعالي بهذه الطريقة؟ وما معنى أن الصوت القرآني المتعالي يتدخل بطريقتين متعارضتين صادرا حكما إيجابيا، بخصوص هذه الشخصيات القرآنية، وصادرا حكما سلبيا بخصوص شخصيات قرآنية أخرى؟

ما معنى رهان الهوية بالنظر إلى القصص القرآني؟

عندما نقرأ القصص القرآني قراءة مقاصدية يمكن القول بأن هذا المتن يحيل إلى أهمية رهان الهوية الذي يسعى إلى استثارته تدخل الصوت القرآني المتعالي بالمعنى الذي أحلنا إليه عبر التقييمين المذكورين على التوالي الإيجابي والسلبي. ضمن هذا المسار، يبرز رهان الهوية وبناؤها عبر مختلف التفاعلات (Giddens, 1991) من حيث أن ذلك يحيل إلى متلقي الخطاب القرآني في جملته سواء بالإحالة إلى مسار مختلف الأحداث التي يتواصل حولها قولا الرسل مع أقوامهم أو بالإحالة إلى الصوت القرآني المتعالي الفاصل عبر حكميه الإيجابي والسلبي بخصوص ما جرى بين الرسل وأقوامهم وما تناقله هؤلاء قولا بخصوص تلك الأحداث.

المتلقي الأول للقرآن الكريم: ما الغرض من التركيز عليه؟

نشير إلى أنه من منظور الرؤية الكونية الإسلامية "المتلقي الأساسي والأول للخطاب القرآني هو الرسول محمّد عليه الصلاة والسلام" (العلواني، 2021: 18). ضمن هذا الصدد، نحن نحيل هنا إلى أهمية

المتلقّي الأساسي والأول للخطاب القرآني أخذا بعين الاعتبار أن هذه الشخصية التاريخية هي التي يهمها الأمر الخاص برهان الهوية الذي يركّز عليه الخطاب القرآني. فالرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، وعلى اعتبار أنه هو المتلقّي النموذجي للخطاب القرآني، فإنه السامع لمختلف مجريات الأحداث التي يقصها المتن القرآني بخصوص الرسل وأقوامهم. هذا منعرج أساسي في التلقّي المذكور على اعتبار أن الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، هو أيضا يواجه نفس الرهان العقدي بخصوص عبادة الله وحده بمقابل عبادة قومه للعديد من الآلهة. من هذا المنطلق يمكن أن نفهم بأن القصص القرآني المحيل إلى التواصل اللفظي بين الرسل وأقوامهم هو نموذج للتلقّي بالنسبة للرسول محمّد، صلى الله عليه وسلم. هذه نقطة مهمة على اعتبار أن هذا الأخير يعيش إشكال العقيدة بشقيه توحيد الله بمقابل الشرك أو الاعتقاد في آلهة أخرى. من هنا تأتي أهمية إحالة المتن القرآني لمجال القصص. هذا الذي ركّز عليه المفسرون المسلمون منذ قرون من الزمن أي بالرجوع إلى ما وصلنا تاريخيا من أولى آثار تفسير القرآن العظيم، محيلين هنا إلى تفسير الطبري أي جامع البيان في تأويل القرآن (2013) وإلى التفسير الكبير للرازي وتفسير ابن كثير (2016) إلى يومنا هذا محيلين على سبيل الذكر لا الحصر إلى التفسير المنير لوهبة الزحيلي (2003) عبورا بتفسير ابن عاشور (1984) وغيره.

من منطلق ما أشرنا أصبحت التفاسير الماضية والحالية مُشَكِّلة للرؤية الكونية الإسلامية حيث دعّمت هذه الرؤية حتى تراهن على القصد التاريخي. هذا الذي يتقاطع مع التصور التاريخاني حول الدين الذي يرى هذا الأخير على أنه "ظاهرة تاريخية بحتة" (Monseu, 2005: 64). ضمن هذا المسار، يتم الالتفات إلى مختلف الأحداث المشكلة لذلك التاريخ حيث تصبح محل استذكار بالنسبة للمتلقّي الحالي، أي هذا الذي يعيش هنا والآن والذي يتواصل مع تلك الأحداث من حيث أنها معطى تاريخي، أي من حيث أن ما جرى قد تحقق وانقضى.

إن مسألة استذكار المتلقّي الحالي للأحداث الماضية المتمثلة في القصص القرآني، أخذا بعين الاعتبار المنظور التاريخاني، هو تناول يُمَكِّنُنا من فهم استوعاب المتلقّي المذكور لأحداث القصص القرآني من حيث رجوع ذاك إلى الزمن التاريخي أي رجوعه إلى زمن تحقق وانقضى. هذا الذي يفهم منه على أن المتلقّي وعلى الرغم من عيشه هنا والآن إلا أن علاقته مبتورة مع الزمن والمكان الحاليين أثناء تواصله المعرفي مع مختلف مضامين القصص القرآني المحيلة إلى الزمن التاريخي. ضمن هذا المسار، نشير إلى أن هذا التصوير بخصوص الزمن الآني الذي يعيش ضمنه المتلقّي الحالي بمقابل الزمن التاريخي العاكس لمجريات الأحداث التي يتضمنها القصص القرآني يعكس رهانين زمنيين مختلفين بحيث أن المتلقّي الحالي يواجه في الزمن والمكان الحاليين رهانات معيشه اليومية، بينما يحيط بالزمن التاريخي المرافق للقصص القرآني رهانات مغايرة مرتبطة بالمعيش التاريخي الذي تصوّره مختلف الأحداث والشخصيات المتفاعلة ضمنها والمشكلة للقصص القرآني التي يتمحور موضوعها أساسا حول إشكال العقيدة بين توحيد عبادة الله وبين عبادة غيره أو الشرك به.

المتلقي المسلم الحالي أمام القصص القرآني: كيف ولماذا؟

نشير هنا إلى أن التواصل النصّي للمتلقّي المسلم الحالي مع مختلف الأحداث والشخصيات المُشَكِّلة للقصص القرآني يعد باعثا على الاستفهام بخصوص مختلف المعاني التي يسعى القارئ و/أو السامع إلى فك رموزها. من هذا المنطلق يعد رجوع المتلقّي الحالي لمختلف التفاسير، التي تتناول توضيحا وتحليلا تلك الأحداث والشخصيات (الرسل وأقوامهم) للقصص القرآني، سلوكا معرفيا ضروريا حتى يتحقق للمتلقّي المسلم الحالي إمكانية استوعاب مختلف معاني ذلك القصص وفك رموزه من زوايا متنوعة (لغوية، شرعية، مقاصدية، إلخ.). ضمن هذا المسار، وبالرجوع إلى مختلف التفاسير الإسلامية التي أشرنا إليها سابقا محيلين إلى تفسير الطبري وإلى تفسير الرازي وغيرهما وصولا إلى آخر التفاسير الإسلامية من حيث زمن صدورها، أي على سبيل الذكر لا الحصر، التفسير المنير للزحيلي، فإن تواصل القارئ المسلم الحالي مع تلك التفاسير يربطه مجددا مع التاريخ حيث هناك إحالة بارزة ومتكررة في تلك التفاسير إلى شخصية الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، من حيث أنه عاش نفس الرهان التاريخي العقدي الذي عاشه الرسل والتي تتمحور حولهم القصص القرآني. إذن يتعلق الأمر، بالنسبة للمتلقي المسلم الحالي، أن ينتقل من زمن تاريخي بعيد، أي زمن الرسل عليهم السلام (نوح، هود، إلخ.) في القرآن من حيث إبرازهم لعبادة الله وحده أثناء مواجهتهم لعقيدة التأليه المتعدد لدى أقوامهم، إلى زمن تاريخي آخر أقرب مقارنة بالزمن التاريخي المذكور، محيلين هنا إلى زمن الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، وإبرازه لعقيدة التوحيد في عبادة الله أثناء مواجهته هو أيضا لعقيدة الشرك بالله لدى قومه. إذن في كلا الحالتين يكون المتلقّي الحالي أمام التاريخ. فسواء كان هذا المتلقّي الحالي أمام تاريخ قديم أو تاريخ أقرب مقارنة بهذا المذكور للتو، فهو في كل هذه الأحوال أمام زمن نصي مغاير بالمقارنة مع زمن المعيش الآني. بكلمات أخرى، الذي يمكن أن يفهمه المتلقّي الحالي من قراءته و/أو استماعه لمختلف التفاعلات اللفظية بين الرسل وأقوامهم في القصص القرآني وطريقة تفسيرها من طرف العديد من المفسرين المسلمين، سواء قديما أو حديثا، هو أن ذلك المتلقّي غير معني بما جرى في زمن مضى وانقضى. فالرهان التاريخي للقصص القرآني رهانه تاريخي أيضا لارتباطه بمجريات التواصل والتوتر اللّذين عاشهما الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، مع قومه أثناء كل من نزول القرآن الكريم وظهور الدين الإسلامي.

المتلقي المسلم الحالي بين الزمنين التاريخي والآني: توتر؟

إذن على أساس ما أشرنا إليه، بخصوص المفارقة التي يعيشها المتلقي المسلم الحالي بين الرِهَانَيْن التاريخيين للقصص القرآني وتفسيرها، من جهة، ورهان الزمن الآني الذي يحيط بهذا المتلقي، من جهة أخرى، هل يمكن للمتلقّي الحالي أن يتجاوز المفارقة المذكورة وكيف يمكن للمتلقّي المسلم الحالي أن يضفي معنى على ذلك القصص بحيث يكن لذلك صدى في معيشه الراهن؟

إن الإشكالية المطروحة عويصة على اعتبار أن المفارقة المذكورة والتي يعيشها المتلقّي المسلم الحالي يواجهها بتوتر بارز على اعتبار أنه ليس هناك نقطة اشتراك بين الرهانين التاريخي والآني. أكثر من ذلك، هناك تعارض بين الرهانين المذكورين. فرهان القصص القرآني وتفسيره هو رهان عبادة الله وحده بمقابل عبادة غيره أو الشرك به، بينما يتمحور رهان الزمن الآني حول النزعة الاستهلاكية Consumerism الناتجة عن النظام الرأسمالي Capitalism الذي يغري المتلقي الحالي ليصبح مستهلك مستمر ومتجدد لكل بضاعة تنتج (Veblen, 1912) إلى غاية دفع المُسْتَهْلِك إلى التماهي مع كل ما هو المُسْتَهْلَك فيصبحا وجهين لعملة واحدة حيث لا نتكلم عن أحدهما إلا ونتكلم بالضرورة عن الآخر! من هذا المنطلق نحيل إلى الاستلاب Alienation حيث لا تستطيع الذات أن تتعرّف على كيانها إلا من حيث أنها كائن مُسْتَهْلِك أي مُسْتَهْلَك عبر استمرار حضور البضاعة وتجددها. هذا الذي يؤدي بالذات إلى عيش الذوبان في الواقع المعيش بالمعنى الرأسمالي للكلمة، فتتحول الذات إلى كائن خاضع للممارسات الجمعية المسماة بالحياة العادية فتتزعزع الذات في هويتها و تفقد بالتالي أصالتها (Fromm, 1955).

إذن من منطلق هذا التصوير المبرز للتوتر الذي يعيشه المتلقّي المسلم الحالي للقصص القرآني ولتفسيره بالتعارض مع المعيش الآني لهذا الأخير والمتمحور حول الاستهلاك والاستلاب، يجد المتلقّي نفسه أمام وضعية خاصة فهو من ناحية مؤمن بإلهية وحقانية النص القرآني ومضمون هذا المتن وكدا طريقة التدليل عليه من طرف المفسرين المسلمين. ومن ناحية أخرى، يجد نفس ذلك المتلقي ذاته أمام رهانات الزمن الآني المتمحورة حول الاستهلاك المؤدّي للاستلاب. بكلمات أخرى، الذي يريد أن يقوله رهان النص القرآني للمتلقي الحالي هو ضرورة إيمان هذا الأخير بما يحيل إليه قصص الرسل مع أقوامهم من حوار ومآل ذلك الحوار، إيجابي فيما يتعلق بالرسل، عليهم السلام، وسلبي، فيما يتعلق بأقوامهم. نشير هنا إلى الآيات "تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**[3] **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ**[4] ۚ **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**[5]" (الأعراف: 101)؛ "**فَكَذَّبُوهُ**[6] **فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ**[7] **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**[8] ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ" (يونس: 73). ضمن نفس المسار، على

---

[3] تظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة إيجابية لما قام به كل رسول، عليه السلام، اتجاه قومه.

[4] ظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة سلبية لما قام به قوم كل رسول اتجاه كل واحد من هؤلاء.

[5] تظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة سلبية لما قام به الله اتجاه قوم كل رسول.

[6] تظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة سلبية لما قام به قوم كل رسول اتجاه كل واحد من هؤلاء.

[7] تظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة إيجابية لما قام به رب نوح بهذا الأخير وبمن معه من الّذين آمنوا من قومه.

[8] تظهر هنا، من منظور قرآني، إحالة سلبية لما قام به رب نوح بقوم نوح.

المتلقّي الحالي أن يستوعب أيضا حقانية المعاني التي يقرأها بخصوص ما كتبه المفسرون حول الآيات القرآنية المحيلة إلى الحوار بين الرسل، عليهم السلام، وبين أقوامهم. إن التفاسير التي أحلنا إليها سابقا تحلّل مختلف تلك الحوارات بين الرسل وأقوامهم. كما توضّح نفس تلك التفاسير القصد من القص القرآني لتلك الأحداث. هذا الذي تنتهي به الآية 73 من سورة يونس "**فَانظُرْ**[9] كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ". هذا الذي نلاحظه أيضا في "تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا **إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ**[10] ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (هود: 49). ضمن هذا المسار، يجد المتلقّي الحالي نفسه أمام تحليلات وتحديد لمقاصد نصية لشخصيات تاريخية، محيلين إلى الرسل عليهم السلام بالرجوع إلى نوح ووصولا إلى محمّد رسول الإسلام. وكأن المتلقّي الحالي غير معني مباشرة بمجريات الأحداث للقصص القرآني وبمقاصد هذه الأخيرة، على اعتبار أنها تؤول إلى استثارة انتباه الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، بما جرى لرسل سبقوه فعليه الالتزام بالصبر، كما تظهره الآية 49 من سورة هود. هذه هي العبرة التي يتناولها الرسول محمّد عليه السلام حتى يصل إلى النجاة والنجاح كما تحقق ذلك للرسل الّذين سبقوه، أي أولئك الّذين يعرضهم المتن القرآني في مجال القصص. فالمواجهة بين الرسل عليهم السلام وبين أقوامهم عليها أن تفهم من طرف المتلقّي الحالي من منظور قرآني في علاقتها بما تحيل إليه مختلف التفاسير الإسلامية من حيث أنها تركّز على أهمية استوعاب مجريات تلك الأحداث القرآنية باعتبارها تثير انتباه الرسول محمّد عليه السلام. هذا الذي على المتلقّي الحالي استوعابه من ذلك القصص القرآني.

سؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كالتالي: إذا كان على المتلقّي الحالي، باعتباره ذات مسلمة، أن تؤمن بحقانية مضمون النص القرآني بما في ذلك مضمون محور القصص. وإذا كان على نفس تلك الذات أن تؤمن أيضا بحقانية التفاسير الإسلامية في تحليلها لمختلف مجريات الأحداث القرآنية التي جمعت بين الرسل عليهم السلام وبين أقوامهم وفي تحديد تلك التفاسير للمقاصد العابرة لتلك القصص حيث مآل ذلك تعزيز إرادة الرسول محمّد عليه السلام في مواجهة شرك قومه. ففي هذه الحالة كيف يمكن أن يستوعب المتلقّي الحالي في الزمن الآني تلك القصص والمقاصد من هذه الأخيرة؟

أولا الذي يستوعبه المتلقي الحالي هو أنه ليس معني مباشرة بالرهانات المحيطة بالقصص القرآني إلا على أن ذلك المتلقّي مُلْزَم، من حيث أنه ذات مسلمة، على أنها عليها أن تعتقد في المصدر الإلهي للقصص

---

[9] هذه إحالة نصية مرجعها، من منظور العديد من التفاسير الإسلامية، شخصية الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام.

[10] هذه أيضا إحالة نصية مرجعها، من منظور العديد من التفاسير الإسلامية، شخصية الرسول محمّد، عليه الصلاة والسلام، وقومه.

القرآني باعتباره جزءا لا يتجزأ من النص القرآني الذي نزّله جبريل، عليه السلام، على محمّد عليه الصلاة والسلام. كما على المتلقّي المسلم الحالي أن يؤمن بحقانية التفاسير الإسلامية المحللة والمدلّلة على مضامين ومقاصد ذلك القصص بالمعنى الذي أشرنا إليه. بكلمات أخرى، الذي يفهم ممّا نتناوله الآن هو أن على المتلقّي المسلم الحالي التركيز بداية ونهاية على الرهان التاريخي فيما هو نصّي؛ بالمقابل على المتلقّي المسلم الحالي التركيز بداية ونهاية على الرهان الاعتقادي للقصص القرآني في الزمن الآني. فالذي على المتلقّي المسلم الحالي استوعابه هو أن الرهان النصي للقصص القرآني هو كله رهان تاريخي، بينما يتمحور رهان الزمن الآني كله على الاعتقاد في إلهية القصص القرآني والمقاصد المرافقة لسرده.

يظهر من العرض الخاص بكيفية استوعاب المتلقي المسلم الحالي للقصص القرآني هو أن ذاك يعيش انشطار في الزمن فيما يتعلق باستوعاب هذا الفضاء النصي. ضمن هذا المسار، يبقى السؤال المطروح هو هل يكفي أن يتفاعل المتلقي المسلم الحالي مع القصص القرآني إلا من حيث أن هذا المجال هو مجال للاعتقاد الإلهي في مصدره ومآله؟ وإذا كان الأمر كذلك فما علاقة المتلقّي المسلم الحالي بالقصص القرآني في الزمن الآني أي في معيش هذا المتلقّي؟

متعة تلقي القصص القرآني: إلى أي مدى؟

مبدئيا وأخذا بعين الاعتبار اعتقاد المتلقي المسلم الحالي في إلهية القصص القرآني وفي إيمانه بحقانية تحليله بالرجوع إلى المفسرين المسلمين فإن المعيش الذي على المتلقّي المسلم الحالي استثماره هو معيش له دلالة معرفية، بيد أن المتلقّي المسلم الحالي يتناول القصص القرآني وتفسيره من منظور معرفي وانفعالي في آن واحد. بكلمات أخرى، وبالنظر إلى التناول التاريخي للقصص القرآني مضمونا ومآلا فإن استرجاع المتلقي المسلم الحالي لذلك القصص في الزمن الآني لا يمكن أن يتحقق إلا من منظور ذاكري يلعب فيه نشاط الاستيهام[11] Fantasmer/Fantasize (Laplanche, Pontalis, 1967) دور أساسي في تفاعل المتلقّي المسلم الحالي مع القصص القرآني. ضمن هذا الصدد، وعلى اعتبار أن الذات القارئة/المستمعة للقصص القرآني لا يعنيها ما الذي يقصه القرآن عليها إلا من حيث الاعتقاد في مضمون الأحداث المقصوصة، أي أن تلك الذات ليست طرف فاعل فيما يُقَص عليها، فهي معنية فقط بالمعنى المعرفي ببناء واستوعاب مختلف المعاني التي لها علاقة بمختلف مضامين القصص القرآني، من جهة، وتفسيراتها المتنوّعة، من جهة أخرى، من حيث أن ذلك الأخذ والرد متمحور حول إشكالية العقيدة بين التوحيد والشرك والتي يتحاور حولها كل رسول مع قومه. من هذا المنظور تتحول علاقة المتلقي المسلم الحالي للقصص القرآني لتصبح موضوع هوام Fantasme/Fantasy، أي التلذّذ بما وقع بالمعنى الإيجابي والسلبي، محيلين على التوالي،

[11] أي تحقيق الذات لرغبة لاشعورية أي خيالية على اعتبار أنها لم تُحَقِّق تلك الرغبة في الواقع.

إلى إنجاء الله للرسل عليهم السلام (نوح، هود، إلخ.) وإلى إغراق وقطع دابر، إلخ. الّذين كذّبوا. فعلى اعتبار أن المتلقي المسلم الحالي أصبح يعي، بالنظر إلى القصص القرآني والتراث التفسيري، أنه ليس مَعْنِي بالقصص القرآني، بالمعنى الواقعي للكلمة، فإن ذلك المتلقّي لذلك القصص وتراثه حَوَّل موقعه وموقفه الوجوديين اتجاه هذه المواضيع حيث أصبح معنيا بها بالمعنى الاستيهامي للكلمة. فبعدما كان يراهن المتلقّي المسلم الحالي على الاستوعاب المعرفي للقصص القرآني ولتراثه التفسيري، وبعدما استنتج المتلقّي المسلم الحالي استحالة تحويله لما استوعبه معرفيا من القصص القرآني وتفسيره إلى تجسيد ملموس، بالمعنى الواقعي للكلمة، انتقل إلى المراهنة على حبه لكل من المآل الإيجابي للرسل عليهم السلام (نوح، هود، إلخ. ومحمّد) وللمآل السلبي لأقوام أولئك كما يتم تصوير ذلك في القرآن وفي التفسير. من هنا نفهم كيف يصبح استماع و/أو قراءة المتلقي المسلم الحالي للقصص القرآني ولتفسيره من منطلق عيشه لمتعة الاطلاع على أحداث تاريخية مسرودة كتابة في هذه السورة القرآنية أو تلك. (Barthes, 1973).

على أساس ما أشرنا بخصوص مواجهة المتلقي المسلم الحالي للرهان التاريخي للقصص القرآني ونوعية تواصل ذاك مع هذه حيث تمثل متعة قراءة ذلك القصص القصد الأساسي والنهائي من استوعاب هذه الأحداث القرآنية حيث بمجرد الانتهاء من قراءة القصص القرآني يستمر عيش المتلقي الحالي لذلك القصص عبر استثارة نشاط الاستيهام اتجاه ذلك المضمون القرآني بالمعنى الانفعالي للكلمة. بالمقابل نفس ذلك المتلقّي تستدرجه في واقعه المعيش ضغوطات الرهانات الحالية المتمحورة حول الاستهلاك المؤدي إلى الاستلاب أو الاغتراب Aliénation/Alienation حيث تعيش الذات المسلمة التوتر الناتج عن اعتقاده في الله تعالى وفي حقانية على التوالي النص القرآني وتفاسيره الإسلامية، من ناحية، وجذب الرؤية الكونية الرأسمالية الاستهلاكية لتلك الذات، من ناحية أخرى.

المتلقي المسلم الحالي أمام القصص القرآني: هل من أجرأة؟

من منطلق ما أشرنا إليه تتبادر إلى الذهن استفهامات حيث نتساءل، في هذه الحالة، عن القيمة المضافة La valeur ajoutée/The added value، بالمعنى الإجرائي للكلمة، للقصص القرآني بالنسبة للمتلقي المسلم الحالي في زمن المعيش الآني؟ وضمن نفس هذا المسار، كيف يمكن للمتلقّي المسلم الحالي أن يتصور على أنه بإمكانه تحويل القصص القرآني من صيغته المكتوبة إلى صيغته المعيشة كما كان الحال بالنسبة للرسل من نوح عبورا بهود، إلخ. ووصولا إلى محمّد عليهم السلام؟

في إطار ما أشرنا إليه نشير إلى أهمية الرجوع إلى الباحث اللساني Benveniste الذي أشار في كتاباته إلى أهمية استوعاب ضمير الـ "أنت" Tu/You (Benveniste, 1966, 1971) أخذا بعين الاعتبار رَسْو هذا الضمير في الزمن الآني والمكان الحالي. نشير، ضمن هذا المسار، على أن المساهمة الأصيلة للباحث Benveniste تتمثل في اعتبار ضمير الـ "أنت" Tu/You على أنه خَالٍ من أي

مرجع[12] Le Référent/The Referent. فالوضعية الخطابية التي تتحقق هنا والآن Ici et Maintenant/Here and Now هي التي تحدد الإحالة المرجعية لضمير الـ "أنت" Tu/You بالنظر إلى المرجع الذي يتم تداوله في الموقف التواصلي حيث يصبح، في هذه الحالة، استعمال ضمير الـ "أنت" Tu/You بديلا عن الوحدة المعجمية L'unité lexicale التي تعد وحدة لسانية حاملة لمعنى وهي محيلة إلى المرجع. يكون الهدف هنا هو استعادة الحديث مجددا عن المرجع حيث يتم استذكار الإشارة إلى حضوره بالمعنى الرمزي للكلمة، هذا الذي يؤول إلى استثارة وعي المتلقي بأهمية الإحالة إلى الموضوع محل التواصل اللفظي. كما أن الاستعادة المرجعية عبر الضمير تسمح بتفادي تكرار ذكر المرجع حيث يؤدي هذا التكرار إلى ملل المتلقّي أو انزعاجه من تلقّيه سمعا و/أو كتابة لنفس الإحالة اللسانية اتجاه نفس المرجع. في هذه الحالة يصبح الاستعمال الخطابي المستعيد للوحدة اللسانية المعبّرة عن المعنى عبر ضمير الـ "أنت" غرضه معرفي واقتصادي في آن واحد. ضمن هذا الصدد، يتجلى الغرض المعرفي من استعمال ضمير الـ "أنت" عبر استعادة مغايرة ومرنة ومختلفة لنفس ما تحيل إليه الوحدة اللسانية الحاملة لمعنى أثناء إحالتها للمرجع حيث يتم تعويض تلك الوحدة اللسانية عبر استعمال ضمير الـ "أنت" Tu/You المحيلة إلى نفس المرجع الذي تشير إليه الوحدة اللسانية الحاملة لمعنى أي بالإشارة إلى الوحدة المعجمية محل الاستعادة اللسانية عبر ضمير الـ "أنت" Tu/You. أما التناول الاقتصادي الذي يميّز استعمال ضمير الـ "أنت" Tu/You فهو استخدام مختزل بالمقارنة مع ما يقابله فيما يتعلق باستعمال الوحدة اللسانية الحاملة لمعنى أي الوحدة المعجمية بالنظر إلى ما تحيل إليه عند تبئيرها نحو المرجع Le Référent/The Referent.

من منطلق ما أشرنا فإن استوعاب المتلقّي المسلم الحالي للقصص القرآني من منظور فهم هذه الذات لضمير الـ "أنت" Tu/You سيؤدي بها إلى تفاعل مع القصص القرآني الذي هو مبدئيا موجّه إلى رسول الإسلام محمّد، عليه الصلاة والسلام، أخذا بعين الاعتبار الغرض المسطّر لذلك القصص من طرف المفسرين المسلمين. هنا وعلى اعتبار أن وظيفة ضمير الـ "أنت" Tu/You تأخذ دلالة نصية جديدة في سياق الحديث عن القصص القرآني فإن الأحداث التي يسردها النص القرآني فيما له علاقة بالأحداث التي جرت بين كل رسول (نوح، هود، إلخ.) وقومه والتي تتمحور أساسا حول التفاعل اللفظي بين كل من ذاك وكل من

---

[12] أي إلى ماذا تحيل الوحدة اللسانية الحاملة لمعنى l'unité linguistique porteuse d'un sens (Dubois, 2002)، بدءا هنا من المونيم Monème ثم الدليل اللساني Le signe linguistique/The linguistic sign ووصولا إلى الخطاب Le Discours/The Discourse والنص The Text/Le Texte.

هؤلاء حول إشكال عبادة على التوالي الله وعدد من الآلهة، فإن ذلك القصص موجّه تاريخيا إلى محمّد رسول الإسلام بينما هو موجّه آنيا إلى المتلقّي المسلم الحالي.

من منطلق ما أشرنا يمثل التوجّه الجديد في استوعاب القصص القرآني من تناوله التاريخي إلى استعادته الآنية منعرجا أساسيا في تعامل المتلقي الحالي مع القصص القرآني. بكلمات أخرى، إذا كان القصص القرآني سابقا يستثير استهام المتلقي المسلم الحالي فينحو هذا الأخير في اتجاه إنماء الخيال ومتعة الفرح بإنجاء الله للرسل عليهم السلام وكدا إغراق وقطع دابر، إلخ. الأقوام التي واجهت رسلها. فبالمقابل التناول الآني للقصص القرآني يدفع المتلقي المسلم الحالي إلى اعتبار ذلك القصص على أنه حامل لصدى اتجاهه. ضمن هذا الصدد، يعد القصص القرآني في هذه الحالة ناقل لأحداث ولشخصيات (نوح وقومه، هود وقومه، إلخ.) تتفاعل فيما بينها لغرض استثارة انتباه المتلقي المسلم الحالي. هذا الذي نستوعبه من تدخل الصوت القرآني المتعالي Le discours méta-coranique/The meta-Qur'anic discourse المعلّق على مختلف الأحداث والشخصيات المشكلة للقصص القرآني. ضمن هذا الصدد، تعد الآيات التالية معبّرة عن أهمية التحوّل الجاري داخل بنية القصص القرآني: "**تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا** ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ" (الأعراف: 101)؛ "فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**" (يونس: 73)؛ "**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**" (هود: 49).

في إطار ما أشرنا إليه، الملفوظات القرآنية المسطر عليها والبارزة بشكل ثخين، محيلة إلى بروز منعرجا جديدا في القصص القرآني حيث يظهر ذلك تحوّلا من مرحلة الإحالة إلى مختلف الأحداث والشخصيات المشكلة للنسيج النصي المعبّر عن مضمون القصص القرآني المتمحور حول إشكال العقيدة، إلى مرحلة جديدة هي أيضا لها علاقة بالقصص القرآني ولكنها تحيل إلى التعليق على مضمون المرحلة السابقة وتقييم مختلف الأحداث التي جرت والتي جمعت بين مختلف الرسل عليهم السلام وأقوامهم. فـ "**تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا** (...) ثم "(...) **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**" ثم "(...) **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**" (هود: 49). كل هذه الإحالات القرآنية تظهر، من منظور تصور Benveniste (Benveniste, 1966, 1971)، حول ضمير الـ "أنت" Tu/You على أنه يمكن أن نفهم أن الملفوظات القرآنية المذكورة للتو على أنها تخاطب المتلقي المسلم الحالي. فـ "**نقص عليك**" و "**فانظر**" و "**نوحيها إليكَ ما كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ**". هي موجهة للمتلقي الحالي على اعتبار أنه ليس هناك إحالة معجمية unité

lexicale تشير بوضوح إلى أن تلك الآيات القرآنية موجهة ليست موجهة آنية للرسول محمد عليه الصلاة والسلام. بكلمات القصص القرآني المذكور والمحيل إلى قصة نوح وقومه وإلى قصة هود وقومه، إلخ. هي موجهة تاريخيا إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بينما هي موجهة آنيا إلى المتلقي المسلم الحالي. إن استعمال ضمير الـ "أنت" بدلا من استعمال الوحدة المعجمية تشير إلى أهمية استثارة انتباه المتلقي المسلم الحالي وهي تؤكد في ذات الوقت أن من هو معني ليس هو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وإنما المعني الأول والنهائي والأساسي هو المتلقي المسلم الحالي الذي عليه أن يحوّل التلقّي المعرفي للقصص القرآني إلى صيغة التحقيق الإجرائي لذلك القصص حيث يتحول المتلقي المسلم الحالي من عيش رهانات الحياة الاستهلاكية إلى عيش رهانات القصص القرآني هنا والآن أي عيش رهان العقيدة حيث تثبيت عبادة الله في ذاته وطرح أو إقصاء عبادة غيره حيث يتجلى ذلك في الخضوع لمختلف المواضيع المستهلة التي تحيل إليها الآن الرؤية الكونية الأورو-أمريكية الحالية المتمحورة حول النزعة الاستهلاكية Consumerism.

المتلقي المسلم الحالي أمام أفعال الكلام القرآنية: هل هناك علاقة؟

من منظور آخر ومن دون قطع الربط بما نشير إليه بخصوص تحيين علاقة المتلقّي المسلم الحالي بالقصص القرآني، فنشير، ضمن هذا المسار وأخذا بعين الاعتبار نظرية أفعال الكلام Speech acts theory، (Searle, 1985 ; Searle & Vanderveken, 1985) على أنه يمكن تطبيق مفاهيم من تلك النظرية اللسانية لفهم كيفية تدخّل الصوت القرآني المتعالي اتجاه مجريات الأحداث المحيلة للقصص القرآني الجامع بين الرسل وأقوامهم، هناك استعمال لصنفين من أفعال الكلام: فمن ناحية هناك استخدام للتقريريات The Assertives حيث يتم استثارة انتباه المتلقي الحالي في عرض ما جرى. فـ "**نقص عليك**" تشير إلى أن عرض ما جرى هو موجّه إلى المتلقي المسلم الحالي، أي القارئ و/أو السامع لذلك القصص القرآني الذي يعيش نفس الرهانات العقائدية التي يصورها هذا القصص بخصوص المواجهة التي جرت بين الرسل وأقوامهم. ثم بعد استخدام الصوت القرآني المتعالي للتقريريات The Assertives يستخدم نفس هذا الصوت صنف آخر من أفعال الكلام محيلين هنا إلى الأمريات The Directives التي يهدف من خلالها المتكلم أو المرسل، أثناء النشاط التواصلي، ليدفع المتلقّي (المستمع أو المستقبل) حتى يحقق مضمون ما قاله ذاك فيحوّل القول إلى فعل. ضمن هذا المسار، يظهر من خلال الآيات القرآنية المعروضة في خضم القصص على أن الصوت القرآني المتعالي يستخدم فعلين كلاميين من نوع الأمريات The Directives "**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**" وأيضا "**فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**". فإذا كان الصوت القرآني المتعالي يستعمل الفعل الكلامي من النوع التقريري كما يظهر في المثال التالي "**نقص عليك**" فإن الصوت القرآني المتعالي ينهي تواصله مع المتلقي المسلم الحالي عبر الإحالة إلى الفعل الكلامي من النوع

الأمري حيث "**فانظر**" محيلة لاستثارة انتباه ذلك المتلقي حتى يرجع إلى الزمن الماضي للاطلاع على المآل المشترك للأقوام التي واجهت رسلها حتى انتهى وجودها بالدمار (الإغراق، إلخ.). أما بخصوص الفعل الكلامي الثاني المستعمل في خضم الرهانات النصية المرتبطة بما عرضه المتن القرآني بخصوص مجال القصص، فإن الصوت القرآني المتعالي ينهي تواصله مع المتلقي المسلم الحالي عبر الإحالة أيضا إلى فعل كلامي آخر هو أيضا من النوع الأمري حيث "**فَاصْبِرْ**" محيلة لاستثارة انتباه ذلك المتلقي حتى يرجع إلى الزمن المستقبلي ليستشرف المآل الإيجابي الناتج عن ضرورة مواجهته الإيجابية لسلبية الاستجابات الهدّامة الناتجة عن مواجهة قومه له. من منطلق هذا التصوير النصي القصصي القرآني يعزز المتلقي المسلم الحالي إرادته ومشروعه المتمحور حول صموده، عبر إيمانه في الله وحده، في مواجهة نزوة الموت[13] Pulsion de mort/Death drive التي تستثير قومه لهدمه حيث غرض هؤلاء هو تحويل المتلقّي المسلم الحالي من الرؤية الكونية التوحيدية إلى الرؤية الكونية المشركة بالله أو المؤمنة في آلهة غيره. من هذا المنطلق وأخذا بعين الاعتبار صبر المتلقي المسلم الحلي اتجاه قومه، كما كان حال الرسل عليهم السلام في مواجهة أقوامهم، فإن ذلك المتلقّي سيحقق في واقعه المعيش سيرورة التماهي Le processus d'identification/The Process of identification مع أولئك الشخصيات القرآنية الرسالية العابدة لله وحده والمتميّزة بالإيجابية المواجهة لسلبية أقوامها. من هذا المنطلق تتجلى في المتلقي المسلم الحالي إمكانية التحرر من الاغتراب أو الاستلاب Désaliénation/Disalienation الذي يعيشه المتلقي العالمي الحالي بالنظر إلى تأثّره بالرؤية الكونية الأورو-أمريكية الرائجة عالميا من خلال النزعة الاستهلاكية بخصائصها السلبية والمدمّرة لأصالة الذات الإنسانية.

ما معنى الـ "أنت" أمام الـ "أنا" في القصص القرآني؟

أشرنا بالنظر إلى تصوّر Benveniste حول ضمير الـ "أنت" Tu/You فيما له علاقة بتحيين رهان حضور المرجع الذي هو الآخر L'Autre/The Other ليس كوحدة معجمية خارج الزمن وإنما في خضم العملية التواصلية التي تتحقق معه، أي مع الآخر عبر الضمير الذي هو الـ "أنت" في الزمن الآني. هذا الذي سعينا إلى تطبيقه على القصص القرآني عبر المراهنة على المتلقي المسلم الحالي الذي يعد بمثابة الـ "أنت" في التواصل الآني للقصص القرآني معه على اعتبار أنه يمثل الآخر بالنسبة لذلك القصص. ضمن هذا المسار، علينا أن نشير، بالنظر مجددا إلى التراث اللساني للمفكر Benveniste، إلى أن ضمير الـ "أنت" لا يمكن أن يُفْهَم ويدلّل عليه ويستوعب مداه وعمقه إلاّ بالنظر إلى ضمير من نوع آخر هو أيضا يُحَيَّن في إطار سيرورة التواصل اللفظي الآني، محيلين هنا إلى ضمير الـ "أنا" "I" The "Je" Le. ضمن هذا

---

[13] للتوضيح تهدف نزوة الموت إلى ميل بارز للذات لهدم الآخر.

المسار لا يمكن أن يفهم ضمير الـ "أنت" إلا من خلال ضمير الـ "أنا" وكذلك ضمير الـ "أنا" لا يفهم إلا عبر ضمير الـ "أنت". بكلمات أخرى، حضور الذات عبر ضمير الـ "أنا" يتحقق للتوجّه، أثناء العملية التواصلية التي تتم هنا والآن، نحو الآخر الذي يستعاد وجوده الآني أثناء التواصل عبر ضمير الـ "أنت".

من خلال ما أشرنا بخصوص ضميري النشاط التواصلي الذي يتحقق هنا والآن بالإحالة إلى الـ "أنا" والـ "أنت" يمكن أن نفهم على أن الصوت القرآني المتعالي Le discours méta-coranique/The meta-Qur'anic discourse العاكس لقول الله تعالى، يمثّل الـ "أنا" المتوجّه في القصص القرآني عبر مثلا "**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**" وأيضا "**فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**" نحو المتلقي المسلم الحالي باعتباره يمثّل الـ "أنت". من هذا المنطلق نفهم أيضا على أن المتلقي المسلم الحالي باعتباره يمثّل الـ "أنت" فهو يتوجّه أثناء تواصله الآني مع الـ "أنا" الذي هو الصوت القرآني المتعالي أي العاكس لقول الله تعالى. على هذا الأساس نفهم على أن المتلقي المسلم الحالي يحقق، على التوالي، فعلي "النظر" و"الصبر" بخصوص الطريقة التي انتهت بها عاقبة المُنْذَرين، هذا من جهة، والصبر الذي يمثّل نقطة النهاية للمتّقين، هذا من جهة أخرى، في القصص القرآني بحيث يحقق المتلقي المسلم الحالي ذانك الفعلين متوجها، في تلك الأجرأة، لله تعالى باعتباره يمثل الـ "أنا" بالنسبة لذلك المتلقي الذي يعد في هذه الحالة الـ "أنت" ضمن رهان استوعاب الغرض من القص في المتن القرآني. من هنا يمكن أن نفهم كيف يتحقق للمتلقي المسلم الحالي الإخلاص فيما يقوم به حيث غرض هذا الأخير، فيما يحققه، هو التوجّه حصريا نحو الله عز وجل.

خاتمة:

نستوعب من هذا العمل المتواضع أن فهم القصص القرآني أحيط به التناول التاريخي الذي يتمحور حول استعادة متكررة لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام باعتباره المتلقي الأول والنهائي والأساسي للقصص القرآني المتمحور حول المواجهات العقدية بين الرسل عليهم السلام (نوح، هود، إلخ.) وبين أقوامهم. بالمقابل سمح لنا تصور Benveniste حول ضميري الـ "أنا" والـ "أنت" بمحاولة استثارة انتباه المتلقي المسلم الحالي حتى يفهم أن ذلك القصص متوجه له من حيث أنه يعيش هنا والآن. من هذا المنطلق نفهم كيف يمكن تحيين رهان المواجهة التي يعيشها المتلقي المسلم الحالي مع الواقع العالمي ذو الصبغة الاستهلاكية عبر تماهيه مع الرسل عليهم السلام التي تعد الشخصيات القرآنية المحورية التي من خلالها يمكن للمتلقي المسلم الحالي عيش الإخلاص لله تعالى. هذا الذي يُمَكِّن المتلقي المسلم الحالي من تفادي الاستلاب المهيمن عالميا والمدمّر إنسانيا.

أخيرا ورغم أننا فهمنا كيف يمكن للمتلقي المسلم الحالي تفادي الاغتراب عبر استوعاب قصد الصوت القرآني المتعالي من القص القرآني. بيد أن السؤال الذي يبقى مطروحا هو هل يمكن للمتلقي المسلم الحالي، وعلى غرار ما قام به اتجاه ذاته، أن يُغَيِّر ذوات أخرى فيحوّلها من الاستلاب إلى الإخلاص؟ وكيف يمكن

لذاك أن يُحَوِّل هؤلاء أخذا بعين الاعتبار هيمنة ورواج الرؤية الكونية الاستهلاكية عالميا وعلميا، هذا من جهة، وأخذا بعين الاعتبار أيضا على أن المتلقي المسلم الحالي هو شخص واحد، هذا من جهة أخرى؟ كل هذا عليه أن يكون محل تفكير وأشكلة بالنظر إلى مجال القصص القرآني حتى نستطيع أن نتقدم أكثر في تواصلنا مع القرآن العظيم مفاهيميا بالمعنى الأصيل للكلمة. هذا الذي يجعل كل واحد منّا من حيث التماهي مع هوية ذات المتلقي المسلم الحالي حتى يتم تفادي تناسي القرآن الكريم كما أشارت إلى ذلك البعد السلبي إحدى الشخصيات القرآنية المحورية والنموذجية " وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" ﴿الفرقان: 30﴾.

المراجع:

– باللغة العربية:

ابن عاشور، . ط. (1984) تفسير التحرير والتنوير. الجزء 8. تونس: الدار التونسية للنشر.

ابن كثير، ع. د. أ. (2016). تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزحيلي، و. (2003) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دمشق: دار الفكر.

الطبري، ب. ج. (2013). تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن). بيروت: دار الكتب العلمية.

الطهطاوي، ع. أ. ع. ع. (2003) "تمام المنة بأحكام البدعة والسنة". بيروت: دار الكتب العلمية.

العلواني، ط. ج. (2021). تفسير القرآن بالقرآن. ط. 2. هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

مسلم، م. [إشراف] [2010] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. المجلدات 1–10. الشارقة: كلية الدراسات العليا كالبحث العلمي جامعة الشارقة.

– باللغة الأجنبية:

Bakhtin, M. (1981). The Dialogic Imagination: Four Essays. Austin: University of Texas Press.

Bakhtin, M. (1986). Speech Genres and Other Late Essays. Austin: University of Texas Press.

Barthes, R. (1973), Le plaisir du texte. Paris : Seuil.

Benveniste (1966). Problèmes de linguistique générale, 1. Paris: Gallimard.

Benveniste (1971). Problems in General Linguistics. FL: University of Miami Press.

Dubois, J. et al. (2002). Dictionnaire de Linguistique. Paris: ed. Larousse-Bordas/VUEF.

Fromm, E. (1955). The sane society. New York, NY: Holt, Rinehart and Winston.

Giddens, A. (1991). Modernity and self-identity: Self and society in the late modern Age. Cambridge, UK: Polity.

Laplanche, J. & Pontalis, J.-B. (1967) Vocabulaire de la Psychanalyse. Paris : PUF.

Monseu, N. (2005) Les usages de l'intentionnalité: recherches sur la première réception de Husserl en France. Leuven: Peeters Publishers.

Searle, J. R. & Vanderveken, D. (1985). Foundations of Illocutionary Logic. Cambridge: Cambridge University Press.

Searle, J. R. (1985). Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts. Cambridge: Cambridge University Press.
Searle, J. R. (1985). Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts. Cambridge: Cambridge University Press.
Veblen, T. (1912). The Theory of the Leisure Class: An Economic Study of Institutions (New ed.). New York: The Macmillan Company.